# (١٠) الفُضيل بن عياض[١]

**ذكر الفضيل بن عياض رحمة الله عليه:**

كان رحمه الله من كبار المشايخ، وكان ذا قدمٍ في الطريقة، وله في الرياضات والكرامات شأنٌ رفيع[٢]، وكان في الورعِ عديمَ المثل، وفي المعرفة مشهورًا في العالم، ومحمودًا بين أُولي الهمم، ومَرجعًا للطائفة الصوفية.

وكان في أوّلِ الأمر ضرب خيمةً في البادية بين ورد وأبيْوَرْد وهما مدينتان من مدائن خراسان، ولبس كساءً وقلنسوة من الصوف، وفي عنقه مسبحةٌ، وله أصحابٌ كثيرة وأعوان، وكان شغلُهم وشأنهم السرقةَ وقطعَ الطريق، وكانوا يأتون بما يَسرقون ويقطعون إلى الفضيل، وهو كان يقسمُ بينهم لما أنه كان كبيرَهم ورئيسَهم، وما كان يريد ويشتهي يأخذ له، لكن كان يكتب في كتابٍ: أنه ما أخذ وممّن أُخذ.

وكان لا يتركُ الصلاةَ، ويواظبُ على الجماعة، ومَنْ لا يُصلّي بالجماعة من أصحابه يطردُهُ من عنده.

---

(١) معرفة الرجال ٢/ ٢١٣، طبقات ابن سعد ٥/ ٥٠٠، تاريخ خليفة ٤٥٨، طبقات خليفة ٢٨٤، التاريخ الصغير ٢/ ٢١٩، التاريخ الكبير ٧/ ١٢٣، المعارف ٥١١، الجرح والتعديل ٧/ ٧٣، مشاهير علماء الأمصار ترجمة (١١٧٩)، ثقات ابن حبان ٧/ ٣١٥، طبقات الصوفية ٦، حلية الأولياء ٨/ ٨٤، الرسالة القشيرية ٣٩، مناقب الأبرار ٧، صفة الصفوة ٢/ ٢٣٧، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ١٩٣، جامع الأصول ١٥/ ٣٧، تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٥١، وفيات الأعيان ٤/ ٤٧، مختصر تاريخ دمشق ٢٠/ ٢٩٨، تهذيب الكمال ٢٣/ ٢٨١، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٢ (١١٤)، ميزان الاعتدال ٣/ ٣٦١، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٥٤، العبر ١/ ٢٩٨، طبقات الأولياء ٢٦٦، العقد الثمين ٧/ ١٣، نفحات الأنس ٥٣، تهذيب التهذيب ٨/ ٢٩٤، النجوم الزاهرة ٢/ ١٢١، طبقات الشعراني ١/ ٦٨، الكواكب الدرية ١/ ٣٩٥، الجواهر المضية ١/ ٤٠٩، شذرات الذهب ١/ ٣١٦.

(٢) في (أ): شأن عظيم.

حتى أن جاء قافلةٌ كبيرةٌ، وأصحابُ الفضيل كانوا يترصَّدون القافلة ويترقّبونها، فاطّلعَ شخصٌ من القافلة على أنَّ في الطريق قطّاعًا، وكان معه بَدْرَةٌ[١] من الدنانير والدراهم، وقصد أن يسترها في موضعٍ بدفنٍ وغيره، لعلّها تبقى إن وقعَ نهبٌ، فخرج عن الطريق، فالتقى بخيمةِ الفضيل، جاء إليها فرأى شخصًا[٢] على صُورة الزاهدين، فسلّم عليه، واستودعه البدرةَ، فقال الفضيل: اذهبْ بها وضعْها في ذلك الجانب من الخيمة. فوضعها هناك، ورجع إلى القافلة، فإذا هي قد نُهبت، وأُخذ ما كان لهم من الأموال والأمتعة، ورأى أصحابَهُ مَشدودين مكتوفين، فذهب إليهم، وحلَّهم، فقاموا وجمعوا ما بقي لهم ومشوا، جاء صاحبُ البدرة إلى الخيمةَ ليطلبَ حقَّه، فرأى الفضيلَ مُقدَّمَ القطّاع ورئيسَهم، والكلُّ بعد النهب اجتمعوا عنده، وجمعوا المالَ كلَّه لديه، وهو يقسمُهُ بينهم، فلمّا رأى الرجلَ على هذه الحال اغتمَّ غمًّا شديدًا، وتأوَّه تأوّهًا عظيمًا، وقال: أعطيتُهُ بدرةً من النقد، وكان مقدمَهم وكبيرهم، ضيَّعتُ مالي بيدي. فرآه الفُضيل مكروبًا مَغمومًا، عرف الحال، وصاحَهُ إليه، وقال: ما حاجتُكَ؟ قال: أريد أمانتي. قال: هي في مكانها الذي وضعتَ فيه، خذْها واذهب. فدخل الرجلُ الخيمةَ، فإذا هي بعدُ في ذلك الموضع، فأخذها وذهب خلف أصحابه من أهل القافلة.

قال أصحاب الفضيل: يا عجبًا، ما التقينا نحن في جميع هذه القافلة بدرهمٍ من النقد، وأنت تردُّ عليهم بدرةً من الدراهم! قال الفضيل: لأنَّ هذا الشخص قد أحسنَ ظنَّه بي، وأنا أيضًا أُحسنُ الظنَّ بالله؛ لعلّه يرزقني توبةً، فصحَّحتُ ظنَّه، عسى أن يُصحِّحَ اللهُ تعالى بكرمه ظنّي.

فبعد هذه القافلة، نهبوا قافلةً أُخرى، وأخذوا منهم أموالهم، وخرجوا عن الطريق، واشتغلوا بالطعام، فسأل رجلٌ منهم من القافلة: أين كبيرُكم؟ قالوا: هو

---

(١) البدرة: كيس فيه مقدار من المال كانوا يتعاملون به، ويختلف باختلاف العهود.

(٢) في (ب) فرأى منها شخصًا.

ليس معنا. وأشاروا إلى مكانٍ، وقالوا: هناك شجرةٌ وعينُ ماءٍ، وهو مشغولٌ بالصلاة في ذلك المكان. قال هذا الرجل: ليس هذا وقتَ الصلاة. قالوا: يُصلّي تطوّعًا. قال: وكيف هو لا يأكلُ معكم؟ قالوا: إنّما هو صائم. قال: ليس هذا من أيام الصوم. قالوا: يصومُ تطوّعًا. فتعجَّبَ الرجلُ، وجاء إليه، فرآه في غايةِ الخُشوع، وهو في الصلاة، وقفَ إلى أن فرغ من الصلاة، قال له: الضدَّانِ لا يجتمعان؛ الصومُ وقطعُ الطريق، والصلاةُ وقتل النفس. قال الفضيل: هل معك شيءٌ من القرآن؟ قال: نعم، وقرأ عليه: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] فسكت الفُضيل، وتحيّر في شأنه.

وقيل: إنه كان في أيام شبابه قبل التوبة ذا مروءةٍ وهمَّةٍ عالية، وكان لا يأخذُ من النساءِ شيئًا، ويتركُ لكلِّ واحدٍ مقدارَ رأس مالٍ ليتَّجرَ فيه، وكان مائلاً إلى الصلاح، وعشقَ امرأةً في ابتداء حاله، وما كانَ يحصلُ له من قطع الطريق كان يصرفُهُ إليها، وكان يدور بالليل، ويبكي من العشق، حتى سمع ليلةً من شخصٍ في قافلةٍ يقرأ هذه الآية: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فوقعتْ في قلبِهِ وقوعًا شديدًا، وأثَّرتْ فيه تأثيرًا عظيمًا، وقال ذلك الشخص القارىء: يا فُضيل، إلى متى تقطعُ الطريق؟ فنحن الليلةَ نقطعُ الطريق عليك ـ يعني نعبرُ من مكانك بحيث لا تَطَّلِعُ علينا ـ وكانوا خائفين من الفُضيل، والحالُ أنَّ الفُضيلَ كان على رأس حائطٍ، فلمّا سمعَ الآيةَ والكلام بعده، رمى نفسَه من الحائط، وقال: نعم، قد آن الوقتُ.

بل عبر فتوجَّه إلى خربةٍ مُتحيِّرًا في حاله، خجلاً من فعاله، فالتقى فيها بجماعةٍ من المجتازين ـ أي العابرين الطريق[1] ـ قد اختفوا هنالك من الفُضيل، وكان يقول بعضهم: نذهبُ. وبعضهم يقول: نخافُ أن يكون الفُضيلُ على الطريق. قال الفضيل: أبشروا، فإنّ الفُضيل قد تاب.

فكان رحمه الله يدورُ على الخصماء، ويُرضيهم، ويستحلُّ منهم ويبكي

(١) كذا الأصلين.

حتى بقي في مدينة أَبِيْوَرْد يهوديٌّ ما كان يُبرئ ذمَّتَهُ، قال اليهوديُّ لبعض أصحابه: اليوم نستهزئُ على شخصٍ محمَّديٍّ. وقال اليهوديُّ للفضيل: تُريدُ أن أجعلَكَ في حلٍّ؟ قال: نعم. قال: أُريدُ أن تنقلَ هذا الرمل عن هذا الموضع حتى أجعلَكَ في حلٍّ. قال: نعم. وكان هناك رملٌ مُجتمعٌ مثلُ أَكَمَةٍ، ونقلها من ذلك المكان مُتعذّرًا جدًا، وما كان في وسعِ الناس، فأمرَ اليهوديُّ الفضيلَ بنقل ذلك الرمل من مكانه ليجعله في حلٍّ، فعلمَه الفضيل أنه لا يقدرُ عليه، إلاّ أنه بالضرورةِ شرعَ فيه، وكان ينقلُ قليلاً قليلاً إلى وقت السَّحرِ، فهبَّتْ ريحٌ، وذهبتْ بالرمل كلِّه، فلمّا أصبحَ، جاء اليهوديُّ، وعرف الحال، فتحيَّرَ، وقال: إني حلفتُ أن آخذ منك حقّي لا بدَّ، وليس لك شيءٌ تعطيني، فذهب به اليهودي إلى البيت، وقال: وضعتُ تحت هذا الفراش دراهم، أدخل يدك تحتَهُ، وأخرجْها وأعطني لئلا أَحنثَ في يميني. والحال أنّه كان تحت الفراش ترابٌ، فأدخل الفضيلُ يده تحت الفراش، وأخرجه، وكفُّه مملوءةً من الدنانير الذهبية، وأعطاها اليهوديَّ، فلمّا رأى اليهوديُّ هذه الحالة أيضًا، قال له: اعرضْ عليَّ الإسلام. فعرضَهُ عليه، وأسلم اليهوديُّ، ثم قال: هل تعرف سببَ إسلامي؟ قال: لا. قال اليهودي: لأنه لم يتبيَّنْ عندي إلى هذا اليوم أنَّ دينَ الإسلام حقٌّ أم لا، واليومَ قد تبيَّنَ عندي أنَّه حقٌّ لا ريب فيه، لأنّي قرأتُ في التوراة أنَّ من تُقبل توبته يقينًا إذا وضعَ يَدَهُ على الترابِ يَصيرُ ذهبًا، فأنا قد جرَّبْتُ توبتَكَ، ووضعتُ هذا الترابَ تحت هذا الفراش، وصار الأمرُ كما رأيت، فعلمتُ أنَّ توبتَكَ مقبولةٌ حقًّا، وأنَّ دينَ الإسلام حقٌّ[1]، فلذا أسلمت.

فأمر الفضيلُ شخصًا بأنَّ يشدَّ يديه، ويجعلَ حبلاً في عُنقه، ويذهبَ به إلى السُّلطان، قال: لأنَّه على حذرٍ من جهة الشرع، ليقيم عليَّ الحدود[2]، فلمّا وصلَ إلى مجلسِ السُّلطان، رأى السلطانُ في وجهه سيما الصالحين، فأعزَّه وأكرمه، وقال: لا نقدرُ نحن على إقامة الحدِّ عليه. وبعثه إلى بيته موقّرًا

(١) في (أ): و﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

(٢) في (أ): لأنه حدود من جهة الشرعِ، ليقيم عليَّ الحدود.

مكرّمًا، فلمّا وصلَ إلى باب البيت، ودقَّ الباب، سمعوا صوتَه، قالوا: قد تغيَّرَ صوتُه، عسى أن وصلَ به جراحةٌ، أو حصلَ به وجعٌ. قال الفُضيل: نعم، إنّي جرحتُ جراحةً. قالوا: على أيِّ عضوٍ؟ قال: على القلب. ثم دخل البيت، وقال لامرأته: إنّي أقصدُ الحجَّ، فإن أردْتِ مُصاحبتي وموافقتي فذاك، وإلا فأسرِّحُك. قالت امرأته: حاشا أن أُفارقك، وأكونُ حيث تكون. فقصد هو مع امرأته الحجَّ، وسافر هو مع امرأته إلى مكَّةَ، والله تعالى قد سهَّلَ عليهما الطريق، فدخلا مكّة شرّفها الله، وأقاما بها، وصاحبَ هناك جماعةً من أولياء الله تعالى، وصاحب أبا حنيفة رضي الله عنه، وحصلت له روايةٌ عاليةٌ، ورياضةٌ تامّة، وانفتح عليه باب الكلام في مكّة شرّفها الله، وكان يجتمعُ عليه أهل مكّة، وكان يعظهم.

نقل أنه قال هارون الرشيد ليلةً للفضل البرمكي: أُريد أن تذهبَ بي الليلة إلى شخصٍ يُريني نفسي، فإنّي تضجَّرتُ من السلطنة. فذهب به الفضلُ إلى سفيان بن عيينة، ودقَّ البابَ، قال سفيان: من أنتم؟ قال: هارون أميرُ المؤمنين. قال سفيان: لمَ تَعِبَ السُّلطان سلّمه الله؟ وما خبّرتموني لأجيء إليه. قال هارون للفضل: ليس هذا مَنْ أُريده. فأخبروا سفيان بالواقعة، قال: هذا الذي قصده أميرُ المؤمنين ليس إلاّ الفُضيل. فذهبوا إليه، فلمّا وصلوا إلى بابه أحسّوا[1] أنه يقرأ شيئًا من القرآن، فاستمعَ هارون، فإذا هو يقرأ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١] قال هارون: لو لم يكنْ لنا حظٌّ من صحبة هذا الشخص غير استماع هذه الآية لكفانا. ثم دقَّ الباب، قال الفُضيل: من على الباب؟ قالوا: هو أمير المؤمنين هارون. قال الفضيل: وما شأنه معي؟ فإنّي رجلٌ فقيرٌ هارب. وما فتح الباب، قال الحاجب: طاعةُ أُولي الأمر واجبةٌ. قال: لا تشوِّشوني. قال الحاجب: لا بدَّ من الدخول إليك. قال الفُضيل: أمّا بالإذن فلا، وأمّا بالحكمِ والوقت،

---

(١) في (آ): إلى بابه سمعوا.

فالحكمُ لكم[١]. ففتح الباب، وعبرَ إليه هارون، فقام وأطفأ السراجَ لئلا يرى وجهَهُ، فذهب إليه هارونُ في الظلمة، فوقعتْ يدُه على يد الفُضيل، فقال الفضيل: ما ألينَ هذا الكف! لو نجا من النار. قال هذا الكلام، وقامَ واشتغلَ بالصلاة، فتغيَّرَ هارون، وغلبَ عليه البكاء، ثم لمّا سلّم الفُضيل، قيل له: تكلّم مع أمير المؤمنين. قال: جدُّك كان عمَّ النبيِّ ﷺ، طلبَ من النبيِّ عليه السلام أن يجعلَهُ أميرًا، قال رسول الله ﷺ: «طاعتُكَ لله تعالى لحظةً خيرٌ لك من طاعة الناس لك ألفَ سنةٍ؛ إن الإمارة يومَ القيامة ندامةٌ»[٢]. قال هارون: زدنا. قال: لمّا ولي عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافةَ دعا عنده سالم بن عبد الله، ورجاء بن حيوة، ومحمد بن كعب، وقال: إنّي ابتُليتُ بهذه البلية، فكيف يكونُ تدبيري؟ فإنّ هذه بليةٌ عظيمة، وإن عدَّها الناسُ نعمة. فقالوا له: إن أردتَ النجاةَ يومَ القيامة من عذاب الله تعالى فأقمْ كلاًّ من شيوخ أهلِ الإسلام مقامَ أبيك، والشبابَ منهم مقامَ إخوانك، والأطفالَ منهم مقام أولادك؛ فإنَّ بيضةَ الإسلام كلَّها كبيتٍ واحدة، وهي لك، وسكّانُها عيالك، فزرْ أباك، وأكرم أخاك، وأحسنْ إلى أولادك. ثم قال الفُضيل: إنّي أخافُ أن يحترقَ هذا الوجه الصبيحَ بالنار، فخفْ من الله تعالى، وتهيَّأْ للجواب، وانتبه؛ فإنّ الله تعالى يُقيمك يومَ القيامة مع كلِّ واحدٍ واحدٍ ممن هو تحت حُكمك دفعةً دفعةً، ويسألُك عنهم، ويَنتصفُ للمظلوم من الظالم، حتى أنه لو باتتِ امرأةٌ عجوزٌ في بيتها نوبةً جائعةً، تتعلّق بذيلك يوم القيامة، وتُخاصمُكَ. فلمّا سمعَ هارونُ من الفُضيل هذا، بكى إلى أن غُشي عليه، قال الحاجب: صَهْ يا شيخ؛ فإنَّكَ أهلكتَ أميرَ المؤمنين. قال الفُضيل: اسكتْ يا هامان؛ فإنّك أنت أهلكتَهُ،

---

(١) في (أ): أما بالإذن فلا، وإن كان بالحكم والقوة، فالحكم لكم.

(٢) لم أجد الحديث في المصادر التي بين يدي، وقد روى أحمد في المسند ٢/ ٤٤٨، والبخاري في صحيحه (٧١٤٨) في الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة، والنسائي ٧/ ١٦٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وإنها ستكون ندامة وحسرة يوم القيامة».

وتقول لي إنك أهلكته. فازداد هارون بكاءً، وقال لحاجبه وهو الفَضل: قال لك يا هامان؛ لأنه جعلني فرعون. قال له: يا شيخ، هل عليك دينٌ؟ قال: نعم، عليَّ دينٌ واحدٌ، وهو طاعةُ الله تعالى، فإن وفّقني الله تعالى لأدائها فطوبى لي، وإلاّ فيا خجلتا. قال هارون: إني أسألك عن ديون الناس. قال: الشكرُ لله تعالى على أنَّ نعمَه كثيرةٌ عليَّ، وإني لا أشكو منه، إذ لا شكوى لي منه. فوضع عنده هارون صُرّةً فيها ألفُ دينار، وقال: هذا من الحلال، قد وصلَ إليَّ من مِيراث أمّي. قال الفضيل: يا أميرَ المؤمنين، ما نفعتك نصائحي، فإنَّك قصدتَ الظُّلم عليَّ؛ لأنّي أرشدتُكَ إلى النجاة، وأنت تُوقعني في البلاء. قال: كيف ذلك؟ قال الفُضيل: أنا أمرتُكَ بأن تردَّ كلَّ مالٍ إلى مالكه، وأنت تصرفه إلى غيره. وقام من عنده، ولم يقبل الصُّرّة، والله أعلم.

نقل أنه كان له ابنٌ صغير، هو ابن أربع سنين، فأخذه مرّةً في حجره وقبّله، كما هو دأبُ الآباء، قال له ابنه: تحبُّني؟ قال: نعم. قال: وهل تحبُّ الله تعالى؟ قال: نعم. قال: يا أبت، كم لك؟ قال: لي قلبٌ واحد. قال ابنه: كيف تحبُّ بقلبٍ واحدٍ شخصين ـ عرف أن هذا الكلام إنما كان من الحقِّ، ولكن جرى على لسانِ الابن، وكان في الحقيقة غيرةً من الله تعالى ـ فضربَ بيده على رأسه، وتابَ عن ذلك، وقطع قلبَهُ عن محبّة الولد وغيره ممّا سوى الله تعالى، وسلّم قلبَه لله تعالى.

نقل أنه كان واقفا بعرفات، فنظرَ إلى ذلك الجمعِ الكثير ـ وهو في غاية التضرُّع والخضوع والبكاء ـ مُتوجّهون إلى الله تعالى، سائلون منه، واقفون بين يديه، فتعجَّبَ وقال: سبحان الله، لو أنّ مثلَ هذه الجماعة وقفوا قدّامَ شخصٍ، وسألوا منه مقدارَ درهمٍ أو أقلّ، ماذا يقول ذلك الشخص، هل يخيّبهم ويمنعهم عن ذلك؟ قالوا: لا، بل يعطيهم ولا يمنعهم. قال: فلا شكَّ في أنَّ الرحمةَ على هؤلاء أسهلُ عند الله تعالى، وأيسرُ عند الله من إعطائهم درهمًا[1]

(١) في (أ): وأيسر عليه من إعطاء درهم.

بالنسبة إلى ذلك الشخصِ، وأنه أكرم الأكرمين، وأرحمُ الأرحمين، فالرجاءُ أن يرحمهم جميعًا.

قيل له وهو في عرفات: كيف ترى هؤلاء الناس؟ قال: مرحومون، لو لم أكنْ أنا بينهم.

قيل: لأيِّ شيءٍ نحن لا نَرى الخائفين؟ قال: لو أنتم من الخائفين لرأيتم الخائفين؛ فإنَّ الخائفين لا يختفون على الخائفين.

**أقول: وكما قيل:**

**وشبهُ الشيءِ مُنجذبٌ إليه**[١]

**والله أعلم.**

وسئل: متى يصل الرجلُ إلى غايةِ محبَّةِ الله تعالى؟ قال: إذا كان المنعُ والإعطاءُ متساويَيْنِ عنده.

قيل: ما تقولُ في شخصٍ يُريد أن يقولَ لبيك، ولا يَستجري مخافةَ أن يُقال له لا لبيك؟ قال: إن من يحقِرُ نفسَه في ذلك المقام إلى هذا الحدِّ أرجو أن لا يكون أقربَ منه أحدٌ، أو أعلى منه في ذلك المقام شخصٌ.

قيل: أصلُ الدِّين ماذا؟ قال: العقل. قيل: أصلُ العقل ماذا؟ قال: الحلم. قيل: أصل الحلم ماذا؟ قال: الصبر[٢]

قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: مَنْ طلبَ الرياسة استحقرَ في أعين الناس، قال: قلت للفُضيل: أوصني. قال: كنْ ذنبًا، ولا تكنْ رأسًا، وهذا يكفيك.

**أقول: وأنشد في هذا المعنى ما قيل**[٣]:

---

(١) شطر بيت لغير ما شاعر، من أقدمهم المتنبي، فقد جعله صدر بيتٍ، عجزه: وأشبهنا بدنيانا الطغام. الديوان: ٤/ ١٩٢.

(٢) هذا الخبر ليس في (ب).

(٣) البيتان لمنصور بن إسماعيل التميمي المصري الضرير، معجم الأدباء ٦/ ٢٧٢٤.

الكلـــبُ أَعلـــى منـــزلاً وهـو النِّهـايـةُ فـي الخسـاسـه
ممّـــن تصـــدّى للـــرِّيـــاســـةِ قبـــلَ أيـــام الـــرِّيـــاســـه

والله أعلم.

قال: بشر الحافي رحمه الله: سألتُ الفضيل رضي الله عنه: الزهدُ أفضل أم الرضا؟ قال: الرضا.

وقال أيضًا: ذهبتُ إلى الفضيل، وبتُّ عنده، وكنَّا من المساء إلى الصباح مُشتغلين بالآيات والأخبار والآثار، فحين أَصبحَ، وأردتُ الرواح، قلت: نعمت الليلة البارحة، كانت ليلةً مباركةً. قال: ولِمَ؟ قلتُ: لأنَّا اشتغلنا بصحبةٍ طيِّبةٍ، ومذاكرةٍ للآيات والأخبار والآثار. قال الفضيل: بئست الليلةُ هذه، وساءت. قلت: لأيِّ شيء؟ قال: لأنَّك كنتَ تجتهدُ في أن تقولَ كلامًا حسنًا ليُعجبني، وأنا أيضا كنتُ مُجتهدًا في أن أقولَ في جوابك كلامًا يُعجبُكَ، وتركنا ذكر الله تعالى، فالأصل إنّما العزلةُ والخلوة لا الصحبة.

قيل: روى الفضيلُ أنَّ عبد الله بن المبارك جاءَ إليه فصاح، وقال: ارجع من ذلك الموضع؛ فإنك تجيء لتكيلَ عليَّ، وأَكيلَ عليك من الكلام.

ونقل أن شخصًا من الأكابر قصده، وجاء إليه قال: لأيِّ شيء جئت إليَّ؟ قال: استئناسًا بك واستراحةً في صحبتك. قال: ارجعْ من مكانك؛ فإنّي أتمنّى أن أصيرَ مريضًا ليكونَ لي رخصةٌ في ترك الجماعة، ولا أُخالط أحدًا، ولا أَرى شخصًا.

قال: إن استطعتُم فاسكنوا موضعًا لا ترون أحدًا ولا يراكم أحد؛ فإنه شغلٌ عظيم.

قال: أقبل منّةً عظيمةً ممّن يمرُّ بي ولا يسلّمُ عليَّ، وإذا مرضتُ فلا يعودني.

**أقول: والسرُّ في ذلك ما قال هو: إذا أُمسي أفرحُ، إذ يكون لي مع الله تعالى خلوةٌ بلا تفرقةٍ، وإذا أُصبحُ يحصلُ لي حزنٌ؛ كراهةَ أن أرى الناسَ وأخالطَهم،**

ويجيئوا إلي ويُشوّشون عليَّ حالي. [والله أعلم].

قال: مَنِ استوحشَ الخلوة، وأستأنسَ بالخلق، فهو بعيدٌ من السلامة.

وقال: من خاف من الله تعالى يخرسُ لسانُه، مصداقُهُ قولُ من قال: مَنْ عرفَ الله كَلَّ لسانه[١].

وقال: إذا أحبَّ اللهُ عبدًا ابتلاه بمصائبَ، وسلَّطَ عليه أحزانًا، وإذا أبغضَ أحدًا وسَّع عليه الدنيا.

وقال: إن بكى ذو حُزنٍ بين الأمة، يُمكنُ أن يرحمَ جميعَ الأمة بسببه.

وقال: لكلِّ شيءٍ زكاةٌ، وزكاة العقل الحزنُ الطويل.

وقال: كما أنّ من العجب أن يَدخلَ أحدٌ في الجنة ويبكي، كذلك أَعجبُ منه أن يكونَ أحدٌ في الدنيا ويضحك، ولا يدري عاقبةَ أمره.

وقال: خمسٌ من علامات الشقاوة: جمودُ العين، وقساوةُ القلب، وقلّة الحياء، والرغبةُ في الدنيا، وطولُ الأمل

وقال: إذا استولى الخوفُ على قلبٍ لا يجري على اللسان ما يضرّه، وتحترق من ذلك الخوفِ منازلُ الشهوة، وحبُّ الدنيا، ويزيلُ من القلب رغبةَ الدنيا.

وقال: من خافَ من الله خافَهُ كلُّ شيء، ومن خاف غيرَ الله لم يخفْ منه شيءٌ، وهو يخافُ كلَّ شيء

وقال: خوفُ العبدِ من الله على مقدار علمه بالآخرة.

وقال: إن أعطيتموني الدنيا كلَّها على وجهٍ يكون عليَّ حلالاً، ثم حاسبتموني عليها لكان لي منها عار، كما يكون لأحدِكم من جيفة

وقال: جُمِعَ الشرُّ كلُّه في بيتٍ مُقفل، وجُعل مفتاحُهُ حبَّ الدنيا، وكذلك الخيرُ كلُّه جُمع في بيت مقفول، وجُعل مفتاحُهُ بغضَ الدنيا.

---

(١) نُسب هذا القول إلى النبيّ ﷺ. قال الإمام النووي: ليس بثابت. انظر كتاب المصنوع (٣٤٨) لعلي بن سلطان القاري. صفحة ١٧٣، ٢١٧، ٢٣٥ من كتابنا هذا.

وقال: الدخول في الدنيا سهل هيِّنٌ، ولكنَّ الخروج منها أمرٌ شديدٌ صعب

وقال: الدنيا كأنها مارستان، والخلقُ فيها كالمجانين، والمجنون لا بدَّ له من غِلٍّ وسلسلة

وقال: باللهِ، لو كانتِ الآخرةُ من خزفٍ باق، والدنيا من ذهبٍ فانٍ، لكان الأولى بالعاقل أن يطلبَ الخزفَ الباقي، ويَجتنبَ من الذهب الفاني، فكيف والأمر بالعكس!؟

وقال: ما أُعطي أحدٌ من الدنيا شيئًا إلاّ ونقصَ من آخرته مقداره ألفًا

قال: لأنَّ لك عند الله ما كسبتَ، فاكسبْ قليلاً أو كثيرًا

وقال: لا تستأنسْ بلذَّةِ الطعام[1] اللذيذ، والثيابِ الناعمة؛ فإنّهما لا يكونان لك ـ أي في القبر.

وقال: الناسُ إذا انقطعَ بعضُهم من البعض [بسبب التكلّف]، فإن تركوا التكلُّفَ، فالألفةُ بينهم سهلُ الحصول.

وسئل: ما التواضع؟ قال: هو الخضوعُ لله، وقبولُ أمره، والامتثال به

وقال: مَنْ عرفَ لنفسه همَّةً، فلا نصيبَ له من التواضع.

وقال: لا تَطلبوا ثلاثةَ أشياء؛ فإنّكم لا تجدونها: عالمًا يكون عملُهُ خيرًا من علمِهِ، وعاملاً يكون إخلاصُهُ مساويًا لعمله، وأخًا لا يكون مغتابًا ـ يعني هذه الثلاثة قليلٌ جدًا، لا تتعبوا في طلبها.

وقال: من أظهرَ بلسانه مع أخيه في الإسلامِ المحبَّةِ، وأضمر في قلبه عداوةً لعنَهُ اللهُ تعالى، وجعل قلبه أصمَّ أخرس.

وقال: تركُ العمل للخلق رياء، والعملُ للخلق شركٌ، والإخلاصُ أن يقيك الله تعالى منهما

---

(١) في (أ): لا تستأنسوا بلذّة الطعام.

وقال: لو أنّي حلفتُ على أنّي مُراءٍ لكان أسهلَ عندي من أن أحلفَ على أنّي لستُ بمراءٍ

وقال: أصلُ الزهد هو الرِّضا بجميعِ ما يفعل الله، وأوْلى الناسِ بالرِّضا أهلُ المعرفة

وقال: الفتوّةُ العفو عن الإخوان.

وقال: حقيقةُ التوكّلِ أن تقطعَ أملَكَ من غيرِ الله تعالى، ولا تخافَ من غيره.

وقال: المتوكّلُ من يكون واثقًا بالله، لا من اتَّهمَ اللهَ في أفعاله، واشتكى منه، بل يكونُ باطنُه موافقًا لظاهره في التَّسليم والرضا.

وقال: إذا قيل لك: تحبُّ الله؟ فاسكتْ، لأنَّك إن قلت لا، كفرتَ، وإن قلتَ نعم، كذبتَ؛ لأنَّ أفعالك ليست أفعال المُحبّين.

وقال: أَستحي من الله تعالى لكثرةِ دخولي في المستراح لقضاء الحاجة، والحالُ أنّه ما كانَ يدخلُ إلاّ في كلِّ ثلاثةِ أيامٍ مرّةً.

وقال: كم من رجلٍ يدخلُ في المستراح، ويخرجُ طاهرًا. وكم من رجلٍ يدخل الكعبةَ طاهرًا ويخرج نجسًا!

وقال: المخاصمةُ مع العاقل خيرٌ من أكلِ الحلواء مع الجاهل.

وقال: من تبسَّمَ في وجه فاسقٍ من طيب النفس، فكأنّما سعى في هدم الإسلام.

وقال: من لعنَ دابّةً، تقولُ الدابة: آمين، وعلى من عصى ربّه منّي ومنك

وقال: لو أُخبرتُ بأن لي دعاءً واحدًا مُستجابًا لصرفتُهُ في حقِّ السُّلطان لا في حقِّ نفسي؛ لأنَّ في صلاحِ السلطان صلاحَ عالَمٍ، وليس في صلاحي سوى صلاح نفسي.

وقال: خصلتان فيهما فسادُ القلب: كثرةُ الأكل، وكثرةُ النوم.

وقال: فيكم خصلتان من الجهل: الأولى تضحكون من غيرِ رؤيةِ شيءٍ عجيبٍ، وتنصحون الناس من غير سهرٍ في ليلةٍ بتمامها.

قال: قال الله تعالى: يا بن آدم، إن ذكرتني ذكرتك، وإن نسيتني نسيتك، وفي الساعة التي لا تذكرني تكون عليك لا لك، فانظر ماذا تفعل.

وقال: أوحى الله تعالى إلى بعض أوليائه[١]: بشّرِ المذنبين إن تابوا أقبلُ منهم توبتَهم، وأنذرِ الصدّيقين فإنّي إن عاملتهم بالعدلِ عاقبتُهم جميعًا.

وقيل: جاء إليه رجلٌ من إخوانه، والتمس منه نصيحةً، فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقيل: كان له ابنٌ، واحتبسَ بولُه في بعض الأيام، فقال: إلهي، بمحبَّتي إيّاك اشْفِهِ، فلم يقم من مقامه إلاّ بعد أن شفاه الله تعالى

وكان يقول: إلهي، جعلتني جائعًا مع عيالي، وجعلتني عاريًا مع أهلي وعيالي، وما أعطيتني ضوءًا بالليل، وليس هذا إلاّ علامةَ أوليائك، فمن أين حصل لي هذا المقام؟ وبِمَ نالَ الفُضيل هذه الدرجة؟

ونقل أنه ما تبسَّمَ ثلاثين سنة إلاّ حين تُوفّي ابنٌ له[٢] فتبسّم، فقيل له: وما هذا التبسُّمُ يا شيخ؟ قال: لأنَّ موتَ ابني من رضاء الله تعالى، وتبسّمتُ موافقةً لرضاء الله تعالى

وكان يقول في آخر أمره: إنّي لا أغبطُ الأنبياء؛ فإنَّ لهم لحدًا وقيامةً، ويعبرونُ على الصراط، ويقولون: «نفسي نفسي»[٣] ولا أَغبطُ الملائكةَ أيضًا

---

(١) في (أ): أوصى الله إلى بعض أنبيائه.

(٢) هو علي بن الفضيل كان زاهدًا ورعًا تقيًا ثقةً. انظر ترجمته في طبقات الصوفية للمُناوي ١/ ٣٧٦.

(٣) قول الأنبياء عليهم السلام: «نفسي نفسي» جزء من حديث الحشر يوم القيامة الذي رواه البخاري (٧٥١٠) في التوحيد، باب كلام الربِّ عزّ وجلّ يوم القيامة مع الأنبياء، ومسلم (١٩٣) في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

في خوفهم، وإن كان خوفُهم أكثرَ من خوف ابن آدم، إذ ليس لهم عشق، وهذا أمرٌ يوجدُ في الإنسان، ولكن أغبطُ وأَحسدُ من لم يوجد، ولا يصير موجودًا

وحكي أنّه لمّا حضرته الوفاةُ، وكانت له بنتان وامرأة، أوصى المرأة، وقال لها: أمسكي بعد وفاتي بيد بناتي واصعدي بهما جبل أَبي قُبَيْس[1]، وادعي الله تعالى، وقولي: قال زوجي: أتعهَّدُ وأُداري هذه الصغار الضعفاء ما عشتُ بتوفيقِكَ، فلمّا تَوفّيتني فأمورهُنَّ إليك. فامتثلت أمره، وفعلت ما أَوصى، وصعدت الجبلَ بالبنتين، وناجت ربَّها تعالى، وقالت ما أمرها أن تقولَ، وبكت، وتضرَّعَتْ، فهي في تلك الحالة إذ جاءَ أميرُ اليمن، ومعه ابنان له، واستخبرَ عن أحوالهنَّ، فلمّا عرفَ الحال، قال: زوّجي بنتيك من ابنيَّ كلاًّ بعشرة آلاف دينار صداقًا. فرضيَتْ، وعقدوا النكاح، وأعطاهما الملك ما يليق به من الملابس الفاخرة، والفُرشِ الغالية، وذهب بهما إلى اليمن. من كان لله كان الله له.

قال عبد الله بن المبارك: لمّا تُوفّي الفُضيل رحمه الله ارتفعَ الحُزنُ من القلوب؛ لأن أحوالَهُ وأفعاله وأقواله كانت سببًا لوقوع الحزنِ في القلوب.

اللهم ارزقنا بفضلِكَ من أحوالهم، وانفعنا بكرمك من أقوالهم، واستعملنا بلطفك بمثل أعمالهم يا كريم يا رحيم.

* * *

(١) جبل أبي قُبَيْس: جبل بمكة، سُمّي برجلٍ من مذحجٍ حدّادٍ، لأنه أول من بنى فيه، وكان يُسمّى الأمين، لأن الركن كان مستودعًا فيه. القاموس.